أم الكتاب

أعظم سورة في القرآن الكريم

لكل شيء مفتاح، والقلب مفتاحه بسم الله العظيم، والروح مفتاحها الأنس بذكر الله ﷻ، والقرآن مفتاحه سورة الفاتحة.

هذه هي الفاتحة التي يرددها المسلمون كل يوم وليلة في كل ركعة من ركعات الصلاة وهي النشيد الرباني الذي يتلوه المسلمون أناء الليل وأطراف النهار يناجون به ربهم أعظم سورة في القرآن الكريم.

عن أبي سعيد رافع بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي بالمسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أُجبه ثم أتيته فقلت: يا رسول الله كنت أصلي.

فقال: «**ألم يقل الله تعالى:**» ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال، الآية: ٢٤].

ثم قال: «**ألا أعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد**»، فأخذ بيدي فلما أردنا الخروج قلت: «**يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن**» قال: «**الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته**»[1].

شرح الحديث:

نتعلَّم من هذا الحديث آداب وأوامر وطاعات:

---

(١) صحيح رواه البخاري.

أما الآداب، عندما دعا الرسول ﷺ سيدنا رافع يجب أن يسرع بالإجابة لأنه من الأدب أن نطيع الأكبر منا والأعلم.

كما قال ﷺ: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا**»(١).

ليكن أدبك دقيقاً وعلمك ملحاً.

وعن الوازع بن عامر قال: قدمنا، فقيل: على رسول الله ﷺ فأخذنا بيديه ورجليه نقبلها(٢) ونسمع أوامر النبي ﷺ ونسرع بالطاعات والتطبيق.

إذاً أعظم سورة في القرآن هي فاتحة الكتاب من قرأها دخل في أمان الله من شر الشيطان والجان والسحر.

عن عمران بن الحصين قال: قال ﷺ: «**فاتحة الكتاب وآية الكرسي لا يقرؤها عبد في دار فتصيبهم في ذلك عين أو جن**»(٣).

الفاتحة الشافية

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سريةٍ وثلاثين راكباً فنزلنا بقومٍ من العرب فسألناهم أن يضيفونا فأبوا فلدغ سيدهم.

فقالوا: هل فيكم أحدٌ يرقي من العقرب؟

قال أبو سعيد: فقلت: أنا ولكن لا أفعل حتى تعطونا شيئاً.

فقالوا: نعطيكم ثلاثين شاةً.

قال أبو سعيد: فقرأت عليه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سبعَ مراتٍ وفي رواية: ثلاث مراتٍ فبرأ، فلما قبضنا الغنم قلنا: هل تحل لنا أم لا

(١) رواه أبو داود والترمذي.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه الديلمي.

تحل؟!. فكففنا حتى أتينا النبي ﷺ فذكرنا ذلك له.

فقال عليه الصلاة والسلام: «**أما علمت أنها رُقَية، اقتسموها** ـ أي الغنم ـ **واضربوا لي معكم بسهم**»[١].

والتداوي بالقرآن لا يمنع التداوي بالأدوية والعقاقير المادية، فقال سبحانه وتعالى في العسل: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل، الآية: ٦٩].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**ما من داءٍ إلا وفي الحبةِ السوداء منه شفاء إلا السَّام**» ـ أي: إلا الموت.

الفاتحة تحفظ من شر العين والجان

عن عمران بن الحصين قال: قال ﷺ: «**فاتحة الكتاب وآية الكرسي لا يقرؤها عبد في دار فتصيبهم في ذلك عين أو جن**»[٢].

حديث بين العبد والرب تعالى.

وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل**».

فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين.

قال الله: حمدني عبدي.

فإذا قال: الرحمٰن الرحيم.

قال الله: أثنى علي عبدي.

فإذا قال: مالك يوم الدين.

قال الله: مجّدني عبدي.

---

(١) رواه الشيخان وأصحاب السنة.

(٢) رواه الديلمي.

فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين.

قال الله تعالى: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل.

فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل[١].

المعاني الحقيقية للفاتحة

«بسم الله الرحمٰن الرحيم»

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كَتَبَ بسمِ اللهِ الرحمٰن الرحيم مجودةً تعظيماً لله تعالى غَفر الله له»[٢].

بتعظيمه للبسملة أوتي الحكمة

عن أبي عبد الرحمٰن في ذكر منصور بن عمار أنه أوتي الحكمة وأنّ سبب ذلك أنه وجد رقعة صغيرة في الطريق مكتوباً عليها: بسم الله الرحمٰن الرحيم، فأخذها فلم يجد لها موضعاً ـ محترماً ـ فابتلعها فرأى في المنام قائلاً يقول له: قد فتح الله عليك باب الحكمة باحترامك لتلك الرقعة، فكان بعد ذلك يتكلم بالحكمة[٣].

الحمد لله رب العالمين

الحمد لله: أي لأنه هو الله الإلٰه الحق المتصف بالكمالات المطلقة فحق له أن يحمد نفسه وأن يأمر عباده بحمده سبحانه.

وفي ذلك محامده ﷺ عقب الأكل والشرب.

وعن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة

---

(١) رواه مسلم.

(٢) أخرجه أبو نعيم.

(٣) رواه البيهقي في الشِعب.

فيحمده عليها»[١].

وعن أنس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا نظر وجهه في المرآة قال: «**الحمد لله الذي سوى خلقي فعدلُه وكرَّم صورة وجهي فحسَّنها وجملني من المسلمين**»[٢].

الحمد لله

فالحمد ليس ألفاظاً تردد باللسان ولكنها تمر أولاً على العقل ليعي معنى النعم، ثم بعد ذلك تستقر في القلب فينفعل بها وتنتقل إلى الجوارح فيقوم العبد ويصلي لله شاكراً ويهتز جسده كله وتفيض الدمعة من عينه.

رب العالمين

أي خالقهم ورازقهم.

روي أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أنك الربُّ وحدك لا شريك لك، اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أنَّ محمداً عبدك ورسولك، اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أنَّ العباد كلهم إخوة، اللهم ربنا ورب كل شيء اجعلني مخلصاً لك وأهلي في كلِّ ساعة في الدنيا والآخرة يا ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب**»[٣].

قوم سبإ عصوا الله

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم، الآية: ٧].

عن ابن عباس: أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن سبإ ما هو: أرجل أم امرأة أم أرض؟ قال: «**بل هو رجل ولد عشرة فسكن اليمن منهم ستة وبالشام منهم أربعة فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشريون وأنمار**

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه ابن السني.
(٣) صحيح مسلم.

وحمير ـ وعرباً كلهم ـ وأما الشامية فلخم وعاملة وغسان».

وسكن قوم سبإ بأرض اليمن وأغدق الله عليهم من نعمه الظاهرة والباطنة، وأصلح لهم البال والحال وبارك لهم في الأرض والمال ووضع عنهم الأوزار والأحمال ونقى لهم الهواء ونزلت عليهم بركة السماء. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ [سبإ، الآية: ١٥].

أي علامة دالة على كمال قدرة الله وبديع صنعه.

قال الإمام عبد الرحمٰن بن زيد رحمه الله إن الآية التي كانت لأهل سبأ في مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة ولا ذباباً ولا برغوثاً ولا قملة ولا عقرباً ولا غير ذلك، وإذا جاءهم الرَّكبُ في ثيابهم القمل ماتت عند رؤيتهم، لبيوتهم جنتان عن يمين وشمال، كان الماء يأتيهم بين جبلين وتجتمع إليه أيضاً السيول، فعمد ملوكهم القدماء فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً (قلت: وهو سد مأرب كما ذكرت الروايات الأخرى) حتى ارتفع الماء وحكم على حافات تلك الجبلين فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن.

ماذا طلب الله منهم على كل هذه النعم...؟!!

قال الله تعالى: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبإ، الآية: ١٥].

لم يطلب الله تعالى منهم سوى الشكر والإقرار بأنه هو المنعم وحده ويبيده كل شيء فمع ذلك الزيادة والبركة وغفران الذنوب ودوام النعمة.

ذكر الإمام أحمد عن وهب قال: «إن الرب عز وجل قال لي في بعض لما يقول لبني إسرائيل: إني إذا أطعت رضيت وإذا رضيت باركت وليس لبركتي نهاية وإذا عصيتَ غضِبتُ وإذا غضبتُ لعنتُ ولعنتي تبلغ السابع من الولد».

● فماذا حدث لهم..؟!!

قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ [سبإ، الآية: ١٦].

قال القاسمي: أي عن الشكر.

قال الشوطاني: عن الشكر وكفروا بالله وكذبوا أنبياءه.

● فماذا كانت العاقبة...؟!!

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ [سَبَإ، الآية: ١٦].

العرم: الشديد أي مطراً شديداً وماءً كثيفاً، وقال ابن الأعرابي: العرم من أسماء الفأر وانقطعت تلك الثمار. قال العزيز الجبار: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سَبَإ، الآية: ١٦].

قال ابن عباس ومجاهد: «خَمطٍ هو الأراك وأثَلٍ وهو الطرفاء، وقيل: خمط ثمر مر لا يؤكل، وأثل شجر لا ثمر له(وشيء من سدر قليل) قلت: من شجر النبق».

قلت: أي نبق قليل في شوك كثير ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧﴾ [الغَاشِيَة، الآية: ٧] وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ [سَبَإ، الآية: ١٧]. وقال ﷻ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سَبَإ، الآية: ١٧].

بقولهم يا رب نزل الغيث

عن سعيد بن خارجة ﷺ أن قوماً شكوا إلى النبي ﷺ قحوطَ المطر فقال: «**اجثوا على الركبِ وقولوا يا ربّ يا ربّ وارفعوا السبابةَ إلى السماءِ**». ففعلوا ذلكَ فسقوا حتى أحبوا أن يكشفَ عنهم المطر، أي: أن يقف[1].

الرحمٰن الرحيم

قال الخطابي ﷺ: «فالرحمٰن هو ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم وأسباب معايشهم وعمت المؤمن والكافر».

والرحيم: فخاص بالمؤمن لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾

(١) رواه الطبراني.

[الأحزاب، الآية: ٤٣] .

هو سبحانه أرحم الراحمين لقوله تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء، الآية: ٨٣] .

«وأنتَ أرحمُ الراحمين» هذه من جملة الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله تعالى به أجاب لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء، الآية: ٨٤] .

من نادى يا أرحم الراحمين

عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ أنه قال: **«إنَّ لله تعالى مَلَكاً موكلاً بمن يقول: «يا أرحمَ الراحمين» فمن قالها ثلاثاً، قال له الملك: إنَّ أرحم الراحمين قد أقبل عليك فسل»** ـ أي تعط ـ[1].

زيد بن حارثة مع اللص

روى العلامة السهيلي بسنده إلى الليث بن سعد قال: بلغني أن زيدَ بن حارثةَ اكترى ـ استأجر ـ بغلاً من رجلٍ واشترط عليه أن ينزله حيثُ شاء زيد.

قال: فمال به ـ صاحبُ البغل ـ إلى خربةٍ فقال له: انزلْ منزل.

فإذا في الخربة قتلى كثير ـ أي كان يأخذ مالهم ثم يقتلُهم في تلك الخربة المهجور بسيفٍ معهُ ـ فلمَّا أراد أن يقتلَهُ قال لهُ زيدٌ: دعني أصلي ركعتين.

قال: فلما صليتُ أتاني ليقتلَني، فقلتُ: يا أرحم الراحمين.

قال: فسمع صوتاً «لا تقتله»، فهابَ الرجلُ من ذلكَ الصوتِ فقامَ يبحثُ عن صاحب هذا الصوت ثم رجع إلي ليقتلني.

فناديتُ: يا أرحم الراحمين.

---

(١) رواه الحاكم.

قال: فسمع صوتاً «لا تقتله»: فهابَ الرجلُ من ذلكَ الصوتِ فقامَ يبحثُ عن صاحب هذا الصوت ثم رجع إلي ليقتلني.

فناديتُ: يا أرحم الراحمين ـ فعل ذلك ثلاثاً فإذا أنا بفارسٍ على فرسٍ بيدهِ حَربةُ حديدٍ في رأسِها شعلة نارٍ.

فطَعنَهُ بها فأنفذها في ظهرِهِ فوقع ميتاً ثم قال لي الفارسُ: لمّا دعوتَ المرة الأولى يا أرحمَ الراحمين كنتُ في السماءِ السابعةِ، فلما دعوتَ الثانيةَ يا أرحم الراحمين كنتُ في السماءِ الدنيا، فلما دعوتَ المرّة الثالثةَ يا أرحم الراحمين أتيتُكَ[1].

مالك يوم الدّين

عن أبي هريرةَ ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**يقبضُ اللهُ الأرضَ ويطوي السماءَ بيمينهِ ثم يقولُ: أنا الملكُ أين ملوكِ الأرضِ؟**»[2].

مالِكِ يومِ القيامة.

عن أنس ﷺ قال: «**يُؤتى بابن آدم يومَ القيامةِ حتّى يُوقَفَ بينَ كفَّتي الميزانِ ويُوكل بهِ مَلَكٌ فإذا ثَقُلَ ميزانُهُ، نادى المَلكُ بصوتٍ يُسمِعُ الخلائقَ: سَعُدَ فلانٌ سعادةً لا يشقى بَعدَها أبداً، وإنْ خفَّ ميزانُهُ نادى بِصوتٍ يُسْمِعُ الخلائقَ: شَقِيَ فلانٌ شقاوةً لا يسعَدُ بعدَها أبداً. وعندَ خِفَّةَ كفّةِ الحسناتِ تُقْبِلُ الزَّبانيةُ وبأيديهم مقامِعُ من حديدٍ عليهم ثيابٌ من نارٍ فيأخذونَ نصيبَ النارِ إلى النارِ**»[3].

مقام المجرمين يوم الدين

يوم الحساب يخافُ المجرمون من العذاب والأمم تجثو على الرُّكب ويخرج المنادي من الزبانية قائلاً: أين فلان ابن فلان المضيَّع عمرَهُ في سوءِ

(١) العلامة السهيلي.
(٢) البخاري ومسلم.
(٣) ابن ماجه.

العمل؟

فيبادرونه بمقامع من حديد ويستقبلونه بعظائم التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد ويقولون له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدّخان، الآية: ٤٩].

يا مالك قد حقَّ علينا الوعيد، يا مالك قد أثقلنا الحديد، يا مالك قد نضجت منا الجلود يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود.

فتقول الزبانية: هيهات لا خروج لكم من دار الهوان ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون، الآية: ١٠٨].

ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون، يبكون، يتأسفون ولا ينفعهم الأسف بل يُكبُّن على وجوههم مغلولين.

النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيمانهم والنار عن شمائلهم طعامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار.

قال أنس بن مالك: يؤتى بأنعم الناس في الدنيا من الكفّار.

فيقال: اغمسوه في النار غمسة.

ثم يقال له: هل رأيت نعيماً قط؟

فيقول: لا.

ويؤتى بأشد الناس ضرًّا في الدنيا، فيقال: اغمسوه في الجنّة غمسة، ثم يقال له: هل رأيت ضراً قط؟

فيقول: لا.

إيّاكَ نعبد وإيّاك نستعين.

عن معاذٍ رضي الله عنه قال: كُنتُ رديفَ رسولِ اللهِ ﷺ على الدّابةِ يوماً.

فقال لي: «**يا معاذ**».

قلتُ: لبّيكَ يا رسولَ اللهِ، ثمّ سكتَ ساعةً.

ثمّ قال: «**يا معاذُ بن جبل**».

قلت: لبّيك وسَعْدَيْكَ يا رسولَ الله.

قال: «**أتدري ما حقُّ اللهِ على عبادِه؟**»

قلتُ: اللهُ ورسولُهُ أَعلم.

قال عليه الصلاة والسلام: «**حقُّ اللهِ على عبادِهِ أن يعبُدُهُ ولا يُشركوا به شيئاً**».

ثم قال: «**يا معاذ**».

قلتُ: لبَّيك يا رسولَ الله وسعديك.

قال: «**أتدري ما حقُّ العبادِ على اللهِ إذا عبدوهُ ولمْ يُشركوا به شيئاً؟**»

قُلْتُ: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ.

قال: «**حقُّ العبادِ على اللهِ إذا عبدوهُ ولم يُشركوا به شيئاً أن لا يُعَذِّبُهم**»[1].

إيّاك نعبد وإيّاك نستعين

فأنت ترى أن جميع ذلك جيء فيه بالنون الدالة على الجامعة فيقول العبد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة، الآية: ٥] ولا يقول إيَّاك أعبد بالإفراد.

هذا موقف فيه هضم النفس والاعتراف بالعبودية لربّ العالمين والاستشعار بالذل والافتقار له، ومعناها أيضاً: ما أنا بالذي بلغت عبادتي المقصرة أذكرها وحدها وأتقدم بها إليك بل أخلطها وأجمعها إلى عبادة جميع العابدين لك لعلك ترضى من جملتهم الأنبياء والأتقياء لقوله تعالى:

---

(١) متفق عليه.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات، الآية: ١٣] .

قيل: إن أعرابياً وقف بالموقف.

قال: إلٰهي إليك خرجت وأنت أخرجتني، ولك وقفت وأنت أوقفتني وقد عصيت أمرك وأنت ما خذلتني ومع ذلك لا عذر لي ولا حجة، فإن رحمتني وعفوت عني فأنت أهل الإحسان ولا فقير أفقر مني يا سيدي ومولاي.

عبادة علي بن الموفق

قال: اللهم إن كنت تعلم أني أعبدك خوفاً من نارك فعذِّبني بها، وإن كنت تعلم أني إنما أعبدكَ حباً مني لجنتِكَ فاحرِمنيها. وإن كنت تعلم أني إنما أعبدك حبًّا مني لك وشوقاً إلى وجهك الكريم فارزقني النظر إليه واصنع بي ما شئت.

قال مَرَّةً في مجلس: قام رجل من إخوانكم - يقصد نفسه - في ليلة باردة فلما تهيّأ للصلاة إذا تعب في بدنه ورجليه فبكى.

فهتف به هاتف من البيت. أيقظناك وأنمناهم وتبكي علينا.

وقال: لمّا تمَّ لي ستون حجة جلستُ بحذاءِ الميزاب في الكعبة أتفكر أيُ مكانتي عند الله تعالى وقد جئت كثيراً إلى هذا المكان فغلبتني عيني. فكأنَّ قائلاً يقول: يا عليّ هل تدعو إلى بيتك إلا من تحبه؟

قال مرة: نظرت إلى أهل الموقف فقلت: اللهم إن كان من أحد لم تتقبل حجَّهُ، فقد وهبتُ حجتي له، فرأيت ربّ العزة في المنام فقال: يا عليُّ بن الموفقِ تتسخَّى عليَّ؟ فقد غفرتُ لأهل الموقف ولأمثالهم وشفّعتُ كلَّ واحدٍ منهم في أهل بيته وذريته وعشيرته قبل أن أخلقهم وأنا أهل التقوى وأهل المغفرة[1].

(١) أحاسن المحاسن.

اهدنا الصراط المستقيم

قال الحسن البصري رحمه الله: «ما طلب رجل هذا الخير ـ يعني الجنة ـ إلا اجتهد وذبل واستمر في الاستقامة» لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فُصِّلَت، الآية: ٣٠].

المستقيم لله تعالى له أربع علامات:

إذا أحسن إليه إنسان لا يحمله إحسانه على أن يميل إليه بغير حق.

إذا أساء إليه إنسان لا يحمله ذلك على أن يقولَ بغيرِ حق.

إنَّ هوى نفسه لا يحوّله عن أمر الله تعالى.

إنَّ حطام الدنيا لا يشغله عن طاعة الله عز وجل.

صفات أهل الاستقامة

● الإخلاص في العبادة لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البَيِّنَة، الآية: ٥].

● بر الوالدين لقوله عز وجل: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمَان، الآية: ١٤].

● صلة الرحم لقوله عز وجل: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النِّساء، الآية: ١].

● أداء الأمانة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النِّساء، الآية: ٥٨].

● أن لا يطع أحداً في المعصية لقوله عز وجل: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف، الآية: ٢٨].

● أن لا يعمل بهوى نفسه لقوله عز وجل: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النَّازعَات، الآيتان: ٤٠، ٤١].

● أن يجتهد في الطاعة ويخاف الله تعالى ويرجو ثوابه لقوله تعالى:

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السَّجدَة، الآية: ١٦] .

نتعلم من قول أبي علي الدقاق رحمه الله

الاستقامة لها ثلاثة مدارج:

١ ـ التقويم.

٢ ـ الإقامة.

٣ ـ الاستقامة.

التقويم: من حيث تأديب النفوس عبارة عن إصلاح الجوارح وتعديلها بنيران الخوف والرجاء لتسلم من المنهيّات وتستقيم على فعل الطاعات.

الإقامة: حيث تهذيب القلوب وتطهيرها من الأخلاق الذميمة.

الاستقامة: من حيث تقريب الأسرار من القلوب.

تكون أفعال العبد موزونة بميزان الشرع.

قول أبو علي الجوزجاني

كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة وربك يطالبك بالاستقامة.

صراطَ الذينَ أنعمت عليهم

إذا قال العبد: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

قال الله تعالى: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل.

من هم أهل الصراط الحقيقي؟

فالمعنى: إنا نسألك يا رب العالمين من باب الفضل والإنعام كما أنعمت على أولئك الذين أنعمت عليهم ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النِّساء، الآية: ٦٩] .

فها نحن واقفون ببابك ومتوجّهون إلى جنابك نسألك أن تلحقنا بذلك الحفل الكبير والجمّ الغفير الذي يؤمهم سيدنا محمد ﷺ.

أبو مسلم الخولاني فعل به كما فعل بإبراهيم الخليل

الأسود العنسي ادّعى النبوة وكان في اليمن فأرسل إلى أبي مسلم فقال له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟

قال: نعم.

قال: فتشهد أنّي رسول الله؟

قال: ما أسمع؟

فأمر الأسود العنسي بنارٍ عظيمة فأججت، فطرح فيها أبو مسلم فلم تضره فقال له أحد أتباعه إن تركت هذا في بلادك أفسدها عليك.

فأمره بالرحيل فقدِم المدينة وزار قبر النبي ﷺ، فَبَصُرَ به عمر بن الخطاب.

فقال: من أين الرجل؟

قال: من اليمن.

قال: فما فعل عدو الله بصاحِبنا الذي حرّقه بالنار فلم تضرهُ.

قال: ذاك هو، أي أنا هو.

فقبَّل ما بين عينيه ثم جاء به حتى أجلسه بينه وبين أبي بكر.

فقال: الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أراني في أُمّة محمد ﷺ من فُعلَ به كما فُعِلَ بإبراهيم خليلِ الرحمٰن.

الاستقامة وهبته الكرامة.

قالت امرأة أبي مسلم له: ليس لدينا دقيق.

قال: عندك شيء؟

قالت: درهم بعنا به غزلاً، فأخذه ودخل السوق فوقف عليه سائل فهرب منه وتبعه السائل فهرب منه وتبعه، فلما أضجره أعطاه الدرهم، ثم عمد إلى الكيس فملأه من نحاتة النجارين ثم أقبل إلى منزله وقلبه مرعُوب من زوجته فرمى بالكيس الممتلىء بالنحاتة يوهمها أنه دقيقاً وذهب سريعاً، فلما فتحته إذا هو بدقيق حوّاري ـ أي دقيق خالص الحنطة ـ، فعجنت وخبزت وجاء أبو مسلم فوضعت بين أيديه أرغفة.

فقال: من أين لكم هذا؟

قالت: من الدقيق الذي جئت به، فجعل يأكل ويبكي.

الاستقامة جعلته مجاب الدعوة

كان أبو مسلم إذا انصرف إلى المسجد كبَّر على باب منزله فتكبّر زوجته، فإذا بلغ باب بيته كبّر فتجيبه امرأته.

فانصرف ذات ليلةٍ فكبَّر عند باب داره فلم يجبه أحد، وكان إذا دخل بيته أخذت امرأته رداءهُ ونعليه ثم أتته بطعامه فدخل فإذا البيت ليس فيه سراج وإذا امرأته منكسة ـ أي غضبانة ـ

قال: ما لك؟

قالت: أنت لك منزلة من معاوية فلو سألته أعطاك.

فقال: اللهم من أفسد عليَّ امرأتي فأعمِ بصرها.

وقد جاءتها امرأة قبل ذلك فقالت لها: زوجكِ له منزلة من معاوية فلو قُلتِ له أن يسأل معاوية فيعطيه المال الكثير.

فبينا تلك المرأة في بيتها ذهب بصرها فقالت: ما لسراجكم أُطفىء؟

قالوا: لا لم يطفأ، فعرفت ذنبها فأقبلت إلى أبي مسلم تبكي فرحمها فدعا الله ﷻ فرد الله عليها بصرها.

قال مرة: ركبت حماراً فلم يمش ونزلت عنه ومشيت على قدمَيَّ وركبه

غيري فسار الحمار فحزنت، فرأيت في ليلتها في منامي قائلاً يقول: لا يُحزنك ما زويَ عنك من الدنيا وإنما يُفعلَ ذلك بأوليائه وأحبابه وأهلِ طاعته، قال: فسُرِّي عني[1].

مقام أهل الاستقامة يوم القيامة

عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا جمعَ اللهُ الأوّلينَ والآخرينَ يَجيءُ منادٍ فيُنادي بصوتٍ يسمعُهُ الخلائقُ سيعلمُ أهلُ الجمعِ اليومَ منْ أولى بالكرمِ، ليَقُمِ الّذينَ كانتْ لا تُلْهيهِم تجارةٌ ولا بيعٌ عنْ ذِكرِ اللهِ، فيقومُونَ وهُمْ قَليلٌ. ثمّ ينادي: لِيَقُمِ الّذينَ كانوا يحمدونَ اللهِ تعالى في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ فيقُومون وهم قَليلٌ. ثمّ يحاسَبُ سائرَ الناسِ**»[2].

غير المغضوب عليهم ولا الضالين

هذا إعلان الغضب من الله تعالى لمن انحرف عن ذلك الطريق المستقيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾ [النّساء، الآية: ١٦٧].

وقد أخبر سبحانه في القرآن الكريم بإعلان غضبه على اليهود خاصة لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة، الآية: ٦٠].

بذنوبهم مسخهم الله قردة خاسئين

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البَقَرَة، الآية: ٦٥].

---

(١) أحاسن المحاسن.

(٢) ذكره ابن أبي الدنيا في الأهوال.

قال السدي: هم أهل أيلة وهي القرية التي كانت حاجزة البحر، فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت وقد حرم الله على اليهود أن يعملوا في السبت شيئاً ولم يبق في البحر حوت إلا يأتي إلى الشاطىء وفي يوم الأحد لم يبق أحد على الشاطىء من الحيتان، فذلك قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف، الآية: ١٦٣].

فاشتهى بعضهم السمك فجعل الرجل يحفر الحفرة فأقبل الموج بالحيتان فتسقط في الحفرة وفي يوم الأحد يأخذ الرجل الحيتان.

فقال لهم علماؤهم: ويحكم إنما تصطادون يوم السبت وهو لا يحل لكم.

فقالوا: إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه.

فلما أبوا قال المسلمون: والله لا نُساكنكم في قرية واحدة، فمسخهم الله قردة وخنازير لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [البَقَرَة، الآية: ٦٥].

والشباب صاروا قردة أما العجائز فصاروا خنازير فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان ألم ننهكم؟

فيقولون برؤوسهم أي بلى، ولم يبقوا في الحياة إلا ثلاثة أيام ولم يأكلوا ولم يشربوا حتى ماتوا غيظاً وقهراً على أنفسهم بما قدمت أيديهم.

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**المغضوب عليهم اليهود، الضالون النصارى**»[1].

كيف أضل النصارى الطريق

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان يَوْمُ**

(١) الترمذي.

القِيامَةِ دُعِيَ بالأنْبياءِ وَأُمَمَهُمْ ثُمّ يُدْعى بِعِيسى فَيُذَكِّرهُ اللهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ فَيُقرِّبها فَيَقُولُ: يَا عيسى ابنِ مريَمَ اذكُرْ نِعمَتي عَلَيْكَ وعلى والِدَتِكَ.

ثُمَّ يَقُولُ: أَأَنتَ قُلْتَ للناس اتَّخِذوني وَأُمّي إلَهين مِنْ دُون اللهِ فينكِر أنْ يكونَ قال ذلك فَيُؤتى بالنَّصارى فيسألون فيقولون: نَعَمْ هُوَ أمَرَنا بِذَلِكَ.

قَالَ: فَيَطُولُ شَعرُ عيسى عليه السلام فَيَأخُذ كُلُّ مَلَكٍ منَ المَلائِكَةِ بِشَعْرَةٍ مِنْ شَعْرِ رَأسِهِ وجَسَدِهِ فيُجاثيهِمْ بَيْنَ يَدَي اللهِ ﷻ مِقْدارَ ألفِ عامٍ حتى تُرْفِعِ عَلَيهِمُ الحُجَّةُ ويُرْفَعَ لَهُمُ الصَّليبُ ويَنطَلِقَ بِهِمْ إلى النَّارِ»[1].

شرح حديث كيف أضل النصارى:

في هذا العصر طوائف ثلاث أشهرها:

١ ـ البروتستانت ـ ٢ ـ الكاثوليك ـ ٣ ـ الأرثوذكس.

يقولون بألوهية المسيح وأن الله (هو المسيح ابن مريم) تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وكان المسيحيون القدامى لا يصرحون بهذا الرأي وإن كان لازماً بالحلول والاتحاد، على أن فرقة منهم هي اليعقوبية تقول: (إن المسيح هو الله).

وقد ذكر الدكتور بوست في تاريخ الكتاب المقدس طبيعة الله ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر: (الله الأب والله الابن والله روح القدس) فإلى الأب الخلق وشؤونهم، وإلى الابن الفداء أي من يموت في شهادة أو في سبيل الله، وإلى روح القدس التطهير أي الطهارة من الذنوب والآثام وتقبل التوبة.

إذا كان المسيح إلٰهاً فكيف لم يرد عن نفسه الصلب الذي هو شر أنواع الهلاك...؟!!!

فقد قيل في الإنجيل: (إلٰهي إلٰهي لماذا تركتني)؟.

(يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس إن لم يكن أن تعبر عني هذه

(١) رواه الحافظ ابن عساكر.

الكأس إلا أن أشربها فلتكن مشيئتك).

الرد على المسيحيين رد ألوهية عيسى: فإذا عيسى ـ كما هو منصوص عندهم ـ نبي ورسول كما أنه بشر كبقية الخلق خائف وجل متضرع إلى الله ﷻ شاعراً بأن الصلب شر أنواع الهلاك ولإخلاصه وصدقه نجاه الله من الذين مكروا به.

لقوله عز من قائل: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء، الآية: ١٥٧].

لا أحد يمكنه أن يرفع الهلاك ويمنع الموت عن عيسى وأمه عليهما السلام ومن في الأرض جميعاً سوى الله وحده له ملك السمٰوات والأرض.

ويوم القيامة يرفض سيدنا عيسى عليه السلام ما وجه إليه من الألوهية فيؤتى بالنصارى فيحاسبوا أشد الحساب بأن يوضع على كل واحد منهم شعرة من شعر سيدنا عيسى عليه السلام حتى تكون الشعرة عليهم كثقل الجبال ناراً حتى ينطقون بالحق ويعترفون أنهم ما ادعوا من ألوهية عيسى هوى أنفسهم ويعترفون بالتوحيد، ولا ينفعهم هذا بعد فوات الأوان لأنه لا ينفع فيه مال ولا بنون فيسحبون ويقذفون في النار.

الشعائر والعبادات عند النصارى

● التعميد: هو رش الماء على الجبهة أو غمس أي جزء من الجسم في الماء، وغالباً ما يغمص الشخص كله بالماء، ولا بد أن يقوم بهذه العملية كاهن يعمِّد الإنسان باسم الأب والابن وروح القدس، ولا يقوم به غير الكهنة إلا الضرورة وحينئذ يسمى (تعميد الضرورة) ولا تجيز الكنيسة القبطية التعميد بالرش إلا للضرورة، وتلزم أن يكون بالتغطيس وأن يكون ثلاث مرات ويعتبرونها فريضة مقدسة لتطهير النفس من أدران الخطيئة هي ختم النعمة مثلما يعد الختان عند اليهود، بينما الإسلام يعدها سنة للنظافة والصحة.

ويقول النصارى إن نبي الله يحيى عليه السلام كان يعمد الناس في نهر الأردن، وهو الذي قام بتعميد المسيح عليه السلام ولذلك سمي (يوحنا المعمدان) ويعتبر النصارى التعميد من أسرار الكنيسة السبعة.

● الأعياد: يهتم النصارى بأعياد ميلاد المسيح عليه السلام، وهي ما تسمى بالكرسمس بضعة أيام قبل رأس السنة الميلادية.

● العشاء الرباني: يوم الفصح ويرمز به إلى عشاء عيسى عليه السلام الأخير مع تلاميذه، إذ اقتسم معهم الخبز والنبيذ، والخبز يرمز إلى جسد المسيح الذي كسر لنجاة البشرية، أما الخمر فيرمز إلى دمه، ويستعمل في العشاء الرباني قليل من الخبز وقليل من الخمر لذكرى ما فعل بالمسيح ليلة النهاية يوم الفصح وكذلك ليكون طعاماً روحياً للنصارى، فمن أكل هذا الخبز وشرب هذه الخمرة استحال الخبز في بدنه إلى لحم المسيح والخمر إلى دمه، فيحصل امتزاج بين الأكل وبين المسيح وتعاليمه، فمن أكل ذلك الخبز وشرب تلك الخمر يوم الفصح وهو المسمى عندهم بالعشاء الرباني (الاستحالة) فقد أدخل المسيح في جوفه وامتزج به وبتعاليمه، برأ الله عيسى مما يقولون ومما يفترون.

● الاعتراف: إذا اعترف المسيحي في الكنيسة أمام القس ولو مرة في العمر غفر له ما فعل من الذنوب بمجرد رضا الكنيسة أو الحاضر عنها. باعتباره نائباً عن الله ﷻ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فإنه لا يغفر الذنوب إلا الله.

ومن الشعائر السبعة كذلك حضور القس عند الزواج ليقيم وحدة بين الرجل والمرأة، وكذلك حضوره عند الموت، ليمسح المريض المشرف على الموت بالزيت، وبخاصة أعضاء الحواس والصلب والأقدام ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ [النجم، الآيات: ٣٩ ـ ٤٤].

● الصوم: هو عندهم الامتناع عن الطعام من الصباح حتى منتصف النهار ثم تناول طعام خال من الدسم، هو صوم اختياري لا واجب، فمن شاء صام ومن لم يشأ لم يصم، ويشمل صوم الأربعاء، وهو يوم المؤامرة التي انتهت بالقبض على عيسى كما يزعمون، ويوم الجمعة لأن المسيح صلب فيه على حد زعمهم، وصوم يوم الميلاد، وعدد أيامه ٤٢ يوماً تنتهي بعيد الميلاد.

والصوم المقدس وعدد أيامه خمس وخمسون، هي عبارة عن الأربعين يوماً التي صامها المسيح مضافاً إليها أسبوعاً الاستعداد والآلام، ويمتنع في هذا الصوم أكل حيوان أو ما يتولد منه، أو ما يستخرج من أصله وصوم الرسل وعدد أيامه يزيد وينقص ما بين ١٥ إلى ٤٩ يوماً، وصوم العذراء ومدته خمسة عشر يوماً، وصوم أهل نينوى ومدته ثلاثة أيام وهو يوم الإثنين.

● الصلاة: سبع في اليوم والليلة: صلاة البكور وصلاة الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة والحادية عشرة والثانية عشرة ومنتصف الليل. وصلاتهم أدعية ومما يقولون: (أبانا الذي في السمٰوات، ليتقدس اسمك، لتأتي ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفانا أعطانا كل يوم، واغفر لنا خطايانا، لأننا نحن أيضاً نغفر لكل من يذنب إلينا، ولا تدخلنا في تجربة ولكن نجنا من الشر).

● الصليب: يقول النصارى أنهم يحملون الصليب رمزاً تذكرهم بالتضحية الضخمة التي قام بها المسيح من أجل البشر، وينسبون قولاً للمسيح عليه السلام، قبل الصلب المزعوم أنه قال: (إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني). وهو قول يدعو إلى العجب والسخرية أن يقول المسيح ذلك، فالمعروف عن الرومان أنهم كانوا يجعلون حمل الصليب دليلاً على صدور الحكم بالإعدام صلباً، ومعنى حمل الصليب على هذه الصورة الاستهانة بالحياة، والاستعداد للموت في أبشع صورة.

الرهبان يغيرون حقيقة البشرية

ولم تقف الدعوة إلى التقشف والتزهد وإهمال الحياة الأرضية عند الحد الذي جاء به الإنجيل، بل ابتدع أتباع النصرانية نظام الرهبانية بما فيه من القسوة على النفس وتحريم للزواج وكبت للغرائز، وانتشر هذا النظام العاتي وكثر أتباعه وأصبح مما يتعبدون به لله ويتقربون به إليه:

البعد عن النظافة والتجمل واعتبار العناية بالجسم ونظافته رجساً من عمل الشيطان.

ظل تعذيب الجسم مثلاً كاملاً في الدين والأخلاق إلى قرنين، وروى المؤرخون من ذلك عجائب فحدثوا عن الراهب «ماكاريوس» أنه نام ستة أشهر في مستنقع ليقرص جسمه العاري ذباب سام! وكان يحمل دائماً نحو قنطار من حديد، وكان صاحبه الراهب «يوبيس» يحمل نحو قنطارين من حديد، وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نزح.

وقد عبد الراهب «يوحنا» ثلاث سنين قائماً على رجل واحدة ولم ينم ولم يقعد طول هذه المدة، فإذا تعب جداً أسند ظهره إلى صخرة.

وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائماً إنما يتسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام، وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر، ويأكل كثير منهم الكلأ والحشيش، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون من غسل الأعضاء، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس. يقول الراهب «أتهينس»: إن الراهب «أنتوني» لم يقترف إثم غسل الرجلين طول عمره. وكان الراهب «إبراهام» لم يمس وجهه ولا رجليه الماء خمسين سنة.

وقد قال الراهب الإسكندري بعد زمن متلهفاً: واأسفاه! لقد كنا في زمن نعد غسل الوجه حراماً فإذا بنا الآن ندخل الحمامات.

حقيقة الكهنوت

لقد أفسد الناس الأديان التي أنزلها الله لتسمو بهم فهبطوا بها، والعجب أن فسادها كان من رجال الأديان أنفسهم، لقد جعلوا من أنفسهم حجاباً على باب الله الفسيح ووجدوها بضاعة رائجة وسلعة تشتد الحاجة إليها.

رجال الكهنوت في العصور الوسطى يبيعون الجنة:

وقد بالغ رجال الدين المسيحي بالغرب في العصور الوسطى في فرض هذه المظاهر الكهنوتية، فعلقوا في معابدهم رسوماً وتماثيل للعذراء والمسيح، وأيقونات ونحوها، وعدتها الكنيسة شعائر تعبدية واجبة التقديس، وكان أعجب ما صنعوه أنهم اتخذوا من الجنة مصدراً للثروة يبيعون منها قراريط وأسهماً لمن دفع الثمن المعلوم، ومن الطرائف اللاذعة ما حكوا أن أحد أثرياء اليهود أراد أن يقابل هذه السخريات العجيبة بسخرية أمر وأعجب: التقى أحد البابوات ولم يشتر منه الجنة كما كان يفعل المسيحيون ولكنه اشترى منه صفقة أخرى وهي جهنم، فباعها له بثمن بخس لأنها سلعة لا يرغب فيها أحد: ولكن اليهودي الماكر أعلن للمسيحيين جميعاً ألا يبالوا بشراء الجنة بعد اليوم لأنه هو قد اشترى من البابا جهنم ولن يدخل أحداً فيها، قالوا: فعاد البابا واشتراها بأضعاف ما باعه.

رجل من أصحاب اليهود يصبح صحابيًا

كان الحصين بن سلام حبراً من أحبار اليهود ـ أي رئيس الكهنة عند اليهود ـ وكان معروفاً بالصلاح والتقى والصدق، وكان كلما قرأ التوراة وقف طويلاً عند الأخبار التي تبشر بظهور نبي في مكة يتمم رسالات الأنبياء وكان يتمنى على الله أن يمد في عمره حتى يشهد ظهور هذا النبي المرتقب.

يقول الحصين بن سلام: ولما سمعت بظهور رسول الله حتى أخذت أتحرّى عن اسمه ونسبه وصفاته وأتيت لعنده فسمعته يقول: «**يا أيُّها النّاسُ أفشوا السَّلام وأطعِموا الطَّعامَ وصَلُّوا بالليلِ والنَّاسُ نيامٌ تَدخلوا الجنّة بِسلام**».

فأيقنت أن وجهه ليس بوجه كذّاب ثم دنوت منه وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فالتفت إليَّ وقالَ: «ما اسمك»؟

فقلت: الحصين بن سلام.

فقالَ: «بَل عَبْدُ اللهِ بن سلاَّم».

فقلت: نعم عبد الله بن سلام، والذي بعثك ما أحبُّ أن لي به اسماً آخر بعد اليوم، ثم انصرفت من عند رسول الله ﷺ إلى بيتي ودعوت زوجتي وأولادي وأهلي إلى الإسلام فأسلموا جميعاً وأسلمت معهم عمتي خالدة وكانت شيخة كبيرة، ثم إني قلت لهم: اكتموا إسلامي وإسلامكم عن اليهود حتى آذن لكم.

ضلال اليهود بتكذيبهم للحق

ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ وقلت له: يا رسول الله إن اليهود قوم بهتان وباطل وأحبُ أن تسترني عنهم في حجرة من حجراتك، ثم تسألهم عن منزلي عندهم قبل أن يعلموا بإسلامي ثم تدعوهم إلى الإسلام.

فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض حجراته، ثم دعاهم وأخذ يحضهم على الإسلام ويحببُ إليهم الإيمان، فجعلوا يجادلونه بالباطل وأنا أسمع فلما يئس من إيمانهم. قال لهم: «مَا مَنْزِلَةُ الحُصَيْنِ بنِ سَلاَّم فِيكُمْ؟»

فقالوا: سيدنَا وابنُ سيدنا وحبرنا وعالِمنا وابن حبرِنا.

فقال: «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ أَفَتُسْلِمُون»؟

قالوا: حاشا لله ما كان ليُسلم! فخرجت إليهم.

وقلت: يا معشر اليهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به محمد بن عبد الله فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله وتجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته وإني أشهد أنه رسول الله وأؤمن به وأصدّقه.

فقالوا: كذبت والله إنك لشرُّنا وابنُ شرنا وجاهلنا وابنُ جاهلنا.

فقلت لرسول الله ﷺ: ألم أقل لك إن اليهود قوم بهتان وباطل وإنهم أهل غدرٍ وفجور.

بشرى من عند الله إنه من أهل الجنة

عن قيس بن سعد بن عبادة قال: كنت جالساً في مجلس المدينة في أناس فيهم بعض أصحاب رسول الله ﷺ فجاء رجل في وجهه أثر خشوع فقال بعض القوم: هذا رجل من أهل الجنة فصلى ركعتين ثم خرج فاتبعتُه فأخبرته أنه هو من أهل الجنة حقاً.

قال لي: رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ، بينا أنا نائم ذات ليلة على عهد رسول الله ﷺ أتاني رجل فقال لي: قم فقمت فأخذ بيدي فإذا أنا بطريق عن شمالي فهممت أن أسلك فيها.

فقال لي: دعها فإنها ليست لك فنظرت فإذا أنا بطريق واضحة عن يميني.

فقال لي: اسلكها ورأيتني في روضة ووسط الروضة عمود من حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء وفي أعلاه عروة.

فقيل لي: ارقه.

فقلت: لا أستطيع، فجاءني خادم فرفعني فصعدت حتى صرت في أعلى العمود وأخذت بالحلقة بيديَّ كلتيهما وبقيتُ متعلقاً بها حتى أصبحت ثم قصصت على رسول الله ﷺ الرؤيا.

فقال: **«أمّا الطّريقُ التي رأَيْتها عَنْ شمالِكَ فَهيَ طَرِيقُ أصْحابِ النَّارِ، أمّا الطَّريقُ التي رأَيتها عنْ يمينِكَ فَهيَ طَريقُ أَصحابِ اليمين.. أهل الجنة أمّا الروضةُ الإسلام والعَمُودُ الذي في وَسَطها عمُود الدِّين وأما الحَلَقَةُ فهيَ العروةُ الوُثقى، ولن تزالَ مُسْتَمْسِكاً بِها حتَّى تَمُوتَ»**[1].

(١) صور من حياة الصحابة.

ما يرشد إليه الحديث تربوياً ودعوياً:

١ ـ هل رأيت أعظم من هذا الرب العظيم إذ يكلم عباده ويناجيهم كلما أظهر العبد عبوديته الخالصة لسيده ويبدأ بقوله بسم الله الرحمٰن الرحيم: لأنه تبدأ نزول الرحمات بالبسملة وهروب الشيطان.

الحمد لله رب العالمين: يرد عليه سيده متباهي أمام ملائكته: انظروا إلى عبدي يحمدني ويثني عليَّ ويسألني الاستقامة ومن لعبدي سواي.

٢ ـ إن عجز أطباؤك عن مداواتك فعليك بالشافية فهي دواء لكل داء لمن يقرؤها بخشوع وتوكل على الله تعالى.

فقد قال سيدنا داود عليه السلام: ذهبت إلى الأطباء فكلهم دلوني عليك ومن يداوي سواك يا مداوي السقام؟